

عمر نابه

## الدين والأخلاق

## بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

ليسمح الأستاذ النمراوى أن تؤكد له أن حرية القول في الأدب الأوربي ولا سيما الحديث منه ما كانت لتؤثر في أدباء اللغة العربية بمقدار ما أثرت، وما كانت تحتفي بمقدار ما احتذيت، لولا أن أدباء اللغة العربية تأثروا قبل اطلاعهم على الأدب الأوربي بحرية القول في الأدب العربي، ولا سيما السياسى وما يليه؛ فالشباب الذى يُبحث على قراءة دواوين العرب وكتب الأدب ويستوعبها لابد أن يحتذى فيها صراحتها. ألا ترى أن السيد توفيق البكري والشيخ شريف رأيا أن الأبيات التى أشرنا إليها في المقالات الماضية أشياء غير مستنكر شرحها وطبعها؟ فإذا كان شيوخ الدين والتربية يتأثرون بهذا الأدب القنوي للكشوف وتأثراً لا يشمرون به، ويجمله مألوقاً ألفته تمنع الاستنكار، فكيف لا يتأثره الشباب الذين لم تكن لهم سابقة الاشتغال بأمور الدين أو التربية، وربما اطلعوا عليه وهم في سن المراهقة كما يفعل الفتيان والفتيات الذين يستمرون كتب هذا الأدب من مكاتب مدارسهم. والقارىء المن يستطيع أن يتذكر فورة شيا به أيام المراهقة، ويستطيع أن يحكم كيف تؤثر قصائد ابن الرومي التى شرحها البكري والشيخ شريف في شهوة المراهق، وكيف تؤثر الدواوين والكتب القديمة المشحونة بأمثال تلك القصائد. وانظر كيف يتغير نظر الشاب المراهق إلى اللائق وغير اللائق مما ينبغى أولاً ينبغى الاطلاع عليه عندما يرى أن شيوخ الدين والتربية يمتنون بشرح هذا الفحش ويطبمونه له، وعندما يرى أن المدارس تحثه على قراءة الكتب التى طبع فيها وتؤنبه إذا لم يقرأها. ومماذا الله أن تقول إن البكري أو الشيخ شريف أرادا بالشبان والفتيات شرراً، إنهما فعلا ما فعلا على قاعدة أن لحياء في اللغة وأدب اللغة، وأن الفن يراد للفن لا لما به من الفحش، كمن يستجيد مثلاً صنعة

وعلى هذا تكون المرأة جميلة ولا تكون قنطاراً واحداً لا زيادة عليه  
تكون جميلة إذا قل فيها الفضول ولو زاد الوزن غاية ما يقدر له المزيد

وتكون مع ذلك « امرأة جميلة » وليست جميلة بماعى الجمال على إطلاقها؛ وهى كما أسلفنا القرب من الحرية والبعد من الضرورة؛ وأن يكون الجسم معافاً على نفسه غير معاف على شروط في خارجه، سواء سميت أو مهلت في التحصيل

ولا بد من التجوز والتسهل على هذا الاعتبار في حدود ما قدمناه

\*\*\*

ويلحق بتفصيل ما قدمنا الجواب عن سؤال وجهه إلينا الأديب « عبد المنم شلبي » يقول فيه :

« هل يمجز امرؤ القيس وهو ذلك الفنان البارح ذو الخيال الوئاب الذى استطاع أن يتذوق جمال الطبيعة وترجم عنها في قصائده عن رسم مثال للألوة موافق لماعى الجمال بمزول عن النعمة لتخلف الأوان؟ وهل لتخلف الأوان دخل في تقدير الجمال؟ وإذا كان كذلك فبالنا ترى عمال فينوس مع تخلف أوانه رمزاً ومقياساً لماعى الجمال في العصر الحديث؟ »

والجواب أن أحيل الأديب صاحب السؤال إلى ما أسلفت عن سبب قصور امرئ القيس في تعريف مقاييس الجمال، فاني لم أقل إنه يقصر في هذا الباب لتخلف الأوان ثم سكت على ذلك؛ بل قلت إنه يقصر فيه « لتخلف الأوان وندرة الأسباب »

ومن الأسباب ولا جدال أن الأعراب في البداية لم يصنعوا التماثيل كما صنعها اليونان الأقدمون أصحاب فينوس، ولم يشغلوا عقولهم وأذواقهم وأخيلتهم بمطالب هذه الفنون، وما تستتبعه من دراسة للأجسام ونظر في تمثيل الأعضاء

وليدكر الأديب صاحب السؤال أن الله جل وعلا لم يقضب على المحدثين جميعاً لأنهم محدثون، بل خلق فيهم أساساً وهبهم « الفن والخيال والبراعة وأتاح لهم أن يتفوقوا جمال الطبيعة ».. فإذا تساوى ما بينهم وبين امرئ القيس في هذه الناحية فهناك زيادة العصر الحديث بل زيادته التى يضيق بها الحصر في مذاهب الفنون والأذواق والمعلوم والأرقام

هباس ممرود العقاد

أبي نواس البيانية في مجونه لا بسبب حبه للمجون بل لحبه للبيان  
والبديع . ولكن هل تلوم الشبان إذا تأثروا بهذا الأدب الثنوي  
المخالف للعرف والتقاليد والآداب والأخلاق الاسلامية وسن  
المراهقة له حوافز ودوافع ؟

وإذا قرأ الشاب بمد ذلك بعض مجون شاعر أوربي كجون  
هنري هيني الشاعر الألماني ( وهو كلا مجون إذا قيس بما في كتب  
العرب ) ألا يرى أن العالم كله الشرق والغرب يجعل هذا الأدب  
اللغوي ويعني بشرحه وطبعه، وإنه إذا لا ضير عليه من احتذائه؟  
وإذا قرأ بمد ذلك قصة عشيق الليدي شارلتي وجد مجوناً كجون  
للفحش العربي ولو أنه كتب بطريقة تحليلية علمية أرق بعض الرق  
من شخص مارجني الدولة السياسية . ألا يرى القارى أن تأثر الشباب  
بالأدب العربي مثل شعر بشار بن برد والحسن بن هاني وغيرهما  
يسهل قبوله للأدب الأوربي الذي يشكو منه الأستاذ النمرأوى؟

لكن الأستاذ تجاهل تاريخ الأدب العربي القديم والحديث  
لكن يستطيع أن يبرهن على أن الأدب القديم غير مخالف  
للفضائل والآداب والأخلاق، وأن الأدب الجديد أو أدب المذهب  
الجديد مخالف للشهوات ومخالف للفضائل . والحقيقة أن هذا  
التقسيم غير حقيق وغير منطقي ، فأدب المذهب القديم به ما يراعى  
الفضائل والأخلاق وبه ما لا يراعىها ، وأدب المذهب الجديد أيضاً  
به ما يراعى الفضائل وبه ما لا يراعىها سواء بسواء . فكان الأحجى  
بالأستاذ أن يقسم الأدب لا إلى مذهب قديم ومذهب جديد، بل  
إلى أدب فاضل وأدب إباحي في الأخلاق، ثم ينتقد الأقوال للأدباء  
جملة، لأن كل أديب أو شاعر قد يكون له ما يرضه الأستاذ في القسم  
الأول، وقد يكون له ما يرضه في القسم الثاني. أو لو أراد قصر مقاله  
على الرافعي لاستطاع أن يقول إن كل أدبه من أدب الفضائل من  
غير أن يتجاهل تاريخ أدب النثة كله، ومن غير أن يحكم حكيم  
كل منهما جائر لما فيهما من التميم الذي يخالف طبيعة العلماء  
أمثال الأستاذ، فإن العلماء الباحثين ولا سيما علماء الكيمياء والطبيعة  
يتخرجون من إصدار أحكام عامة بسبب شواهد خاصة معدودة،  
فلا يقولون إن أدب المذهب القديم هو أدب الفضائل، وإن أدب  
المذهب الجديد هو أدب الرذائل على وجه التميم

لكن الأستاذ النمرأوى عالم، فلا بد أن فطنه ويحتمه قد

أوصلاه إلى حقيقة أراد أن يفسرها فبالغ في تفسيرها واشتط  
وأصدر هذه الأحكام العامة . ومن أجل أن تتبع تفكير الأستاذ  
يذني أن ننظر إلى الفرق الحقيقي في أدب المذهب القديم وأدب  
المذهب الجديد من حيث الروح . إن الأدب القديم وصل في عهده  
الأخير إلى أدب احتذاء لأدب اجتهاد، ونعني بالاجتهاد الاصطلاح  
الفقهي لا المعنى الثنوي، فان نصيبه من الاجتهاد كبير إذا أريد  
المعنى الثنوي للاجتهاد. وهذا هو الفرق الحقيقي بين اجتهاد أدباء  
المذهب القديم واجتهاد أدباء المذهب الجديد؛ فالذهب الجديد يريد  
يبحث النفس وعواطفها وشرائعها وسننها، لا قصر البحث على  
شهواتها، ولا رغبة في إطلاق هذه الشهوات من عقلمها كما يقول  
الأستاذ . فبحث النفس يقتضي بحث جانب الايمان منها  
كما يقتضي بحث جانب الشك؛ ولكنه الشك الذي يبعثه الايمان،  
وهو الشك الذي يبحث عن أمل للانسانية في هذه الحياة وبعد  
هذه الحياة، والذي يحاول أن يداوى شرور الحياة ما استطاع  
الانسان ذلك . وهذا الشك لا يستقيم لمن كان قلبه غير طامس بالايمان؛  
والشاعر لا يكون شاعراً إلا بمثل هذا الايمان المصحح المنيف  
الذي يريد أن يزكي نفسه. وهذا أول أسباب سوء الظن بهذا  
المذهب. وثانيها أن الاجتهاد شبه الفقهي في تفسير الحياة وعوامل  
النفس قد يشط أحياناً. وقد أقل باب الاجتهاد في الفقه ولكن  
باب الاجتهاد في الفقه النفسى والفكرى لم يقفه المذهب الجديد.  
خصائص المذهب الجديد الروحية هذه أى الرغبة في بحث جوانب  
النفس والحياة واستئناس اجتهاد الفقه الفكرى والروحي هي  
خصائص قد يشط معها الأديب في بعض الأحيان، ويكون شططه  
في عهد الصبا أكثر، إذ تكون خبرته قليلة واندفاعه عظيماً. ثم إن  
بعض الأدباء قد تشط بهم هذه الخصائص دائماً شططاً بعيداً؛  
ومن أجل ذلك ليس من الحق أن نسلك جميع الأدباء في نظام  
واحد. ألا ترى أن الأدب الأوربي الحديث يشمل نزعات مختلفة  
كل الاختلاف منها ما يحدث صلة بينه، وبين الأدب الأوربي في  
المصور السابقة، ومنها ما يتأى به عنها؟ فحكر الأستاذ النمرأوى  
على المذهب الجديد كن يحكم حكماً عاماً واحداً على الأدب  
الأوربي الحديث على اختلاف نزعاته الذي يشبه اختلاف نزعات  
الأدب المصري الجديد من أجل أن أساس تلك النزعات واحد

نزعات النفس وجوانب الحياة تاعدة عامة في آداب العالم كله؛ ولا يمكن إعادة عقارب ساعة الزمن إلى ما كانت عليه في الماضي للقضاء على ما يشكو منه الأستاذ. فإذا أراد أن يظهر بتطهير الأدب كان الأحجى به ألا يتمصب لقديم ولا لجديد، وأن يأخذ من الجديد على تنوع أغراضه وأبوابه ما لا بد منه لإشباع مطالب النفس والفكر في عصر تعددت فيه مطالبهما وأصبحت كد النهر في قيضانه، وألا يفترق هذا الأدب الجديد بالجملة كي يصيب سامعاً مجيئاً إذا هو قصر تقدمه على ما في هذا الأدب الجديد من شطط، وأن يتخذ في تقدمه هذا الشطط طريقة التحليل النفسي والالمام بأسبابه ونتائجه وشواهد على طريقة الطبيب المداوي بالتحليل النفسي، وألا يقصر تقدمه على شطط الجديد من غير نظر إلى شطط القديم، وقد أوضحنا أن حرية القول في الأدب الجديد تمت بسبب إلى الأدب القديم سواء أ كان ذلك في النزول والأمور النفسية أم في الأمور الفكرية، وليظهر كتب الأدب القديم وعاداته المألوفة من مجون وشطط فكري كما بينا

وإني لأربأ ببصيرة الأستاذ وعقله أن يظن كما يظن بعض الناس أن إسقاط أدب أو أكثر من أدب من أدباء المذهب الجديد يقضي على هذا المذهب. ولو كان من المستطاع القضاء على كل ما قاله أدباء المذهب الجديد من شعر أو نثر - الجيد منهما وغير الجيد والمقبول، وغير المقبول - فإن هذا القضاء على ما قاله المعاصرون لا يقضي على الأدب الجديد، لأن أسبابه أعم وأكبر من أن نحسب من ابتكار أدب أو أكثر من أدب. وربما كان من الحكمة أيضاً ألا ينسى الأستاذ وهو الخبير بالنفس الانسانية أن بعض العدا الذي لاقاه المذهب الجديد من غير المبرزين الفطاحل كان بسبب الاجادة المحموده الماثورة المحموده في بعض هذا الأدب الجديد، وإن كان عدا المبرزين الأفاضل أمثال الرافعي بسبب اختلاف حقيق في الرأي والروح (قارىء)

سهر

ذكرت سهر أن آيات ابن الرومي في (كتاب صهاريج الزواجر) والحقيقة أنها في كتاب (غول البلاغة) للمؤلف نفسه أي البكري ولا يوجد شرح ولكنه اختارها هي وقصيدة (بوران) ولم يكف عن اختيار الجون تحريماً. وكذلك لا يوجد شرح في الأرجوزة الأخرى ولكن عدم التحرج ملحوظ أيضاً

« ٥ »

وهو بحث التجارب النفسية والفكرية؛ فن الأدباء من يبحثها على طريقة المرعي، ومنهم من يبحثها على طريقة شكسبير، ومنهم من يبحثها على طريقة أدباء الرمزية... الخ. وكما أنه ليس من الحق أن يحكم الأستاذ حكماً عاماً على أدباء المذهب القديم (وبينهم تفاوت في الروح)، ولا من الحق أن يحكم حكماً عاماً على أدباء الأدب الجديد، فليس من الحق أن يحكم حكماً عاماً على الشاعر أو الأديب الواحد، فإن الشاعر نفس وللنفس مظاهر مختلفة تقتضى تفصيل الحكم عليها ما دام لا يحكم على قول أو عمل واحد، أو عليها في حالة أو زمن خاص. وليس من الحق أيضاً أن يُتفقد الأستاذ أثر حرية القول في الأدب المرعي الذي شرحناه في أول هذا المقال، ولا من الحق ألا يرى أن حرية القول الناشئة من إطلاق الشاعر نفسه من القيود أثناء البحث شططا منه لم يأت بأشنع من الأمثلة التي ذكرناها للأستاذ من الأدب المرعي، بل لملها أقل شناعة؛ وهي على أي حال ليست من لوازم أي مذهب، فنقلها في آداب المصور والأمم موجود، وواجب الناقد أن يميز بينها وبين الصالح من قول الأديب أو الشاعر. ومما يدل الأستاذ على أن الأدب المرعي الحديث خليط من القديم والجديد أن أحدهما ياق زميله فيسأله هل أنت من أنصار المذهب القديم أم من أنصار المذهب الجديد؟ كأن الحكم ليس لما يؤلفه الأديب من شعر أو نثر، وكأنا يصح أن يكتب الأديب على طريقة المذهب الجديد ويختار أن يمد من أنصار القديم أو العكس. لكن هذا السؤال له معنى وقيمة؛ إذ هو دليل على الخبرة من أجل أن أدب كل أديب خليط من مؤثرات الأدب المرعي في عصوره المختلفة والأدب الأوربي أيضاً؛ وإنما يختلف هذا الخليط عند كل واحد باختلاف مقادير عناصره. ومن الأسباب التي قد تدعو إلى سوء الظن بالأدب الجديد علاوة على ما ذكرناه، ما يقرأ منه أحياناً من سخر وتشاؤم، وقد يكون فيهما شطط؛ وقد يحسبان من قلة الإيمان، ولكنهما قد يكونان من الإيمان الحائر في وجوه الكون والحياة الذي لم يوهب نعمة الاستقرار، وهي حالة تمرض لكثير من النفوس فلا يستطيع تجنب وصفها كل التجنب. وإذا نظر الأستاذ إلى ما ينشر في الصحف والمجلات والكتب في جميع الأقطار العربية من شعر ونثر وجد في تباين أبواب القول الذي لم يترك جانباً من النفس والحياة لم يحاول نمته، ما يدل الأستاذ على أن هذا التنوع هو خصيصة الأدب الحديث، وهو يشمل ما يشكو منه الأستاذ، ولكنه أعم مما يشكو منه، وقد صار هذا التنوع في الأدب وشموله بحث